مدينة البطحاء دراسة تاريخية

Title in English; The city of Batha, a historical study

مواسيم يونس*

جامعة يحي فارس المدية

younesmouassim48@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/12/26 تاريخ القبول 2023/01/30 تاريخ النشر 2023/02/14

ملخص:

ان الكتابات التاريخية بشتى أنواعها قد رصدت لنا شتى الجوانب الحياتية ، ومكنت الباحثين من استشراف كثير من الحقائق وفهم طبيعة الأحداث ،ولعل من أهم كتابات التي أصبحت محل رواج من طرف العديد من الباحتين هي تلك الكتابات التي تعني بالتاريخ المحلي الذي يركز على قطر بعينه. ذلك أن هذا الاهتمام بهذه الكتابات نابع من قدرتها على ربط الفرد بمحيطه وتعزيز انتمائه لمجتمعه وتحميله في الأخير مسؤولية الحفاظ على مورثه الثقافي والفكري وحتى منه العمراني ، من هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على جزء من التاريخ المحلي لمدينة من المدن المجاورة لقلعة بني راشد وهي مدينة البطحاء .

الكلمات المفتاحية :

الكلمات المفتاحية: البطحاء؛ تاريخ؛ المغرب الأوسط؛ قلعة بني راشد؛ الصراع؛ الأدوار التاريخية

---

* المؤلف المراسل

Abstract:

This research paper came to talk about an important part of the local history of the region represented in the city of Batha, which played a key role in many events that determined the fate of the entire region, and it and the Bani Rashid Fort carried the same historical and social composition so that it is not possible to talk about the castle without talking about Neighboring cities because of the interdependence and interaction of history

Abstract.

***key words**:* Batha City; history; Bani Rashid Castle; conflict; historical roles

مقدّمة:

تعد مدينة البطحاء من بين المدن التى لعبت دورا هاما في المنطقة وعلى الرغم من أهمية دورها التاريخي التي أبرزته كثير من المؤلفات التاريخية لم تحظى باهتمام الباحثين خاصة منها في الفترة الوسيطة ،حيث اصبحت هذه المدينة ومنذ تأسيسها منطلقا لكثير من الاحداث التي حددت مصير المنطقة بأكملها ،كما حملت هي وقلعة بني راشد نفس التركيبة الاجتماعية والتاريخية والثقافية بحيث لا يمكن الحديث عن قلعة بني راشد بمعزل عن المدن المجاورة لها لما للتاريخ من ترابط وتفاعل .

ومن هنا يمكن أن نطرح الإشكال التالي : ما دور منطقة البطحاء في سيرورة المسار التاريخي للمنطقة ؟ ، و متى تم تشكيل وتأسيس المدينة؟ وما أهمية دورها الاقتصادي ؟ وطبيعة التركيبة الاجتماعية؟ و ما مصير المدينة ؟ .

وللإجابة على هذا الإشكال اتبعنا المنهج التاريخي لتتبع مراحل التطور التاريخي لمدينة البطحاء والمنهج الاستنتاجي لفهم تاريخ التأسيس و الموقع ، والمنهج الوصفي للحديث عن طبيعة النشاط الاقتصادي والتركيبة الاجتماعية .

1- المدينة: النشأة والموقع :

1-1 تأسيس المدينة :

لا ندري بالتحديد تاريخ بناء المدينة حيث تشير بعض المصادر الموحدية إلى أن تأسيسها يعود إلى فترة حكم عبد المؤمن بن على[1] الذي قام بتأسيس المدينة ابتدءا من سنة 555هـ/ 1160م أثناء فترة توسعاته في إفريقية[2] إلا أن و بالاعتماد على قرائن تاريخية عديدة يمكن أن نقول أنها كانت موجودة قبل هذا التاريخ ،ذلك أن المهدي بن تومرت[3] وفي طريقه للرجعة مر بمدينة البطحاء حيث أقام فيها سنة 515 هـ/ 1121م[4] أي في الفترة المرابطية ، وهذا مايوحي أنها موجودة قبل بناءها من طرف عبد المؤمن بن على ،ضف الى ذلك أن المدينة ظهرت في كتب بعض الرحلة ابتدءا من القرن الرابع هجري على غرار المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم والتى جاء ذكرها ضمن المدن التابعة لتهرت فيقول :" أما تاهرت فهي اسم قصبة ومن مدنها .. وهران ،شلف الغزة ،سوق ابراهيم ...البطحة "[5] كما أن المدينة أصبحت مجالا لنفوذ بعض المعارضين للدولة الرستمية والزيرية على غرار ابن مسالة الهوري ومحمد بن خير الدين المغرواي كما سنشير لاحقا.

هذا ماذهب اليها أيضا مارمول كاربخال الرحالة الإسباني الذي يشير إلى أن المدينة عتيقة ترجع إلى فترات سابقة حتى قبل الفترة الإسلامية ،حيث يذكر أنها كانت تدعى قديما ب بونوبور[6] على أن المدينة بلغت قمة التحضر في عهد الموحدين والزيانين حيث يذكر حسن الوزان ذلك " وكانت المدينة كبيرة متحضرة جدا وأهلة بالسكان ... وكانت تحقق لملك تلمسان دخلاً يقدر بعشرين ألف مثقال[7]".

1-2 الموقع الجغرافي :

يجهل اليوم موقع البطحاء لكن بعض الدلائل المتناترة التى جاءت في المصادر تشير الى وقوعها على الطريق المؤدي من تلمسان الى العاصمة وبالتحديد على الضفة

اليسرى لواد مينا بالقرب من إيغيل إيزن ، إذ يصفها ياقوت الحموي أنها "مدينة بالمغرب قرب تلمسان بينهما مسيرة تلاثة وأربع أيام[8]" ، ويضعها الوزان ضمن حدود إقليم بني راشد ويذكر انه بجهتها الشرقية من موقعها القديم يجري نهر قليل الاهمية وهو نهر مينة[9].

ويشير ابن خلدون أن البطحاء تقع بعد مواطن هوارة الذين يسيطرون على قلعة بني راشد ويشير في نفس السياق أن قبائل بني يلومي الزناتية التي تولت زمام الملك بعد أفول نجم مغروة كانت تستوطن البطحاء حيث تقع موطنها الجهة الغربية لواد مينا ،ويؤكد مارمول وقوع مدينة البطحاء بقرب نهر مينا[10]،ويمكن أن نستتشف من هذا أن البطحاء محصورة بين نطاق بني راشد وبين إيغيل إيزان [11] ويمكن أن تكون على أغلب الظن مدينة المطمر حاليا[12]، ويتفق مع هذا الطرح مجموعة من الباحثين من أمثال مختار حساني والشيخ محمد بوعبدلي ... عبد الرحمن الجيلالي ومبارك الميلي وغيرهم[13].

1-3 التسمية :

لقد أطلقت معظم المصادر على المدينة تسمية "البطحاء" ويظهر أن التسمية اشتقت من كلمة البطحة و"هو مكان متسع يسيل فيه الماء فيخليه التراب والحصى الصغار وقيل بَطْحاءُ الوادي تراب لَيِّنٌ مما جَرَّتْه السُّيُولُ، وجمع بطاح وبطئح لأَبْطَحُ مَسِيل واسِع فِيهِ دُقاقُ الحَصى. ابْنُ سِيدَهْ: وَقِيلَ بَطْحاءُ الْوَادِي تُرَابٌ لَيِّنٌ مِمَّا جَرَّتْه السُّيُولُ، وَالْجَمْعُ بَطْحاواتٌ وبِطاحٌ. يُقَالُ: بِطاحٌ بُطَّحٌ، كَمَا يُقَالُ أَعوامٌ عُوَّمٌ، فإِن اتَّسَعَ وعَرُضَ، فَهُوَ الأَبطَحُ، وَالْجَمْعُ الأَباطِحُ، كسَّروه تَكْسِيرَ الأَسماء، وإِن كَانَ فِي الأَصل صِفَةً لأَنه غَلَبَ كالأَبْرَقِ والأَجْرَعِ فَجَرَى مَجْرَى أَفْكَل؛ وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ: أَنه أَول من بَطَحَ المسجدَ، وَقَالَ: ابْطَحُوه مِنَ الْوَادِي الْمُبَارَكِ، أَي أَلقَى فِيهِ البَطْحاءَ، وَهُوَ الْحَصَى الصِّغار. [14] قَالَ ابْنُ الأَثير: وبَطْحاءُ الْوَادِي وأَبْطَحُه حَصاه اللَّيِّنُ فِي بَطْنِ المِسِيل؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثِ:أَنه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صلَّى بالأَبْطَح، وقال النضر: الأبطح والبطحاء بطن الميثاء والتلعة والوادي، وهو التراب السهل في بطونها مما قد جرّته السيول، يقال: أتينا

أبطح الوادي، وبطحاءه مثله، وهو ترابه وحصاه والسهل اللين، والجمع الأباطح، وقال بعضهم: البطحاء كل موضع متسع، وقول عمر، رضي الله عنه: بطّحوا المسجد أي القوا فيه الحصى الصغار[15] .

كما أورد الميلي نصا "نقله عن الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر يشير إلى تسمية أخرى للمدينة في أخبار الدول مدينة البطحاء مدينة عظيمة ببلاد الغرب في وطأة من الأرض وتسمى مدينة السدرة وبها أنهار كثيرة " [16] في حين يذكر مارمول كاربخال تسمية أخرى للمدينة بعد وصفها بالقديمة ، حيث يذكر أنها كانت تسمى بونوبور [17].

2- التطور التاريخي للمدينة :

2-1 المدينة قبل العهد العهد الزياني:

ومع قيام الدولة الرستمية 160هـ /776م وإنتشار المذهب الإباضي على يد عبد الرحمان بن رستم [18]فقد دانت المنطقة لحكم أل رستم وأصبحت ضمن نطاق مملكتهم التى شملت "جبال كازول على تلول منداس ...وتمر بالبطحاء إلى أن تصب بوادي شلف"[19] .

ويبدو أن ومع سنة 240 هـ /785م وجراء الفتن التى عصفت بالرستمين فقد تحولت منطقة البطحاء إلى سلطة أحد المعارضين للإمام الأفلح وهو إبن مسالة حيث يشير اليعقوبي إلى استحواذ هذا الأخير على المنطقة ابتدءا من قلعة بني راشد التى كانت مقرا له الى يلل[20] ووصولا الى البطحاء[21] .

ومع قيام الدولة الفاطمية واستفحال أمرها دخل المغرب الاوسط وكذا منطقة البطحاء تحت هيمنتها إلى أنها لم تستكن للفاطمين، حيث أصبحت البطحاء ضمن نفوذ قبائل بني يلومي احدى أهم بطون مغرواة الزناتية ويشير ابن خلدون الى ذلك قائلا في الخبر عن بني مانوا وبني يلومي "وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة ،أشدهم

شوكة وموطنهم جميعا بالمغرب الأوسط ... وبني يلومي بالعدوة الغربية منه بلجعبات والبطحاءوسيك وسيرت"[22] .

أما في العهد الزيري فقد استطاع محمد بن خير بن خرز المغرواي[23] أن يسيطر على البطحاء بدعم من الأمويين في الأندلس حيت حشد قبائل زناتة وهذا ما دفع زيري بن مناد إلى تولية ابنه بولوغين بن زيري وإمداده بجيش كبير حيث التقى الجمعان بالبطحاء ، والتي انهزم فيها محمد بن الخير بعد مكيدة دبرها بولوغين ،ويبدو أن هذه المعركة أدت إلى أفول نجم محمد بن خرز وأنهت طموحاته ، على أن المنطقة لم تهنئ بالاستقرار فبعدما انتهت معركة السالفة الذكر [24]، وبعد تولي المنصور بن بولوغين السلطة خلفا لأبيه الذي عين عمه أبي البهار على تيهرت و البطحاء وسيرات ... إلا أن هذا الأخير أعلن العصيان ومال لصالح الامويين وبعت البيعة لهم إلا انه مالبث أن خرج عن طاعتهم وعاد إلى خدمة أخيه مما دفع بالمنصور بن أبي عامر وزير المؤيد الأموي لتكليف زيري بن عطية الخزري لانتقام منه حيث استطاع إنهاء تمرد أبي البهار وتملك سائر البلاد [25].

ومع نقض الزيرين لطاعة العبيدين فقد أطلقت الدولة الفاطمية العنان للقبائل العربية التي استطعت أن تستولى على منطقة المغرب الأوسط واستوطنت قبيلة هبرة[26] أحد بطون سويد الهلالية منطقة البطحاء بالضفة اليمنى من نهر مينة ،ويبدو أن المنطقة ظلت في صرع دائم وتحت سيطرة القبائل العربية في عهدين الحمادي والمرابطي ويبدو أن المدينة تعرضت لخراب كبير هذا ما يستشف من قيام عبد المؤمن الموحدي من إعادة اعمارها بعد ذلك[27] .

أما في العهد الموحدي فقد أشارت المصادر إلى إقامة ابن تومرت بمدينة البطحاء وذلك عند عودته من المشرق و من الملاحظ أن تحركات ابن تومرت كانت محسوبة حيث كان دخوله إلى المدن ليس للإقامة فقط بل كان يعمد فيها إلى نشر أفكاره وكسب

الحلفاء ،وبالتالي يمكن أن تكون البطحاء من تلك المدن التي اختارها ابن تومرت في إطار مشروع بناء دولته[28]،ولعل ما يؤكد هذ الرأي هو قيام عبد المؤمن بن على بالاقامة فيها بعد ذلك وإعادة إعمارها ادركا منه لأهمية الجغرافية لهذه المدينة ورغبة منه بجعلها مركزا متقدما لمواجهة المعارضين ولتوسعاته وقد اشار ابن زرع الى سبب إعادة ترميم البطحاء وذلك بعدما خاف من بعض المتآمرين عليه ممن طال عليهم البقاء نتيجة لتوسعاته في افريقية مشيرا في خضم ذلك إلى تركه في المدينة عشرة من كل قبيلة ممن كان يثق بهم[29].

2-2 الفترة الزيانية :

ومع بداية القرن السابع و مع وصول قبائل بني عبد الواد أصبحت البطحاء ضمن نطاق نفودهم أين تولي يغمراسن بن زيان الجزء الغربي والتى كانت قعدته تلمسان خلفا لجابر بن يوسف سنة 633 هـ/ 1235م و اعلن استقلاله بهذا الجزء والتى اصبح يمتد من واد ملوية غربا إلى السيك والبطحاء غربا . هذه الأخيرة التى كانت تحت سيطرة بني توجين قبل ذلك وهذا ماتشير إليه قيام أبي زكرياء الحفصي في إطار حملته سنة 632 هـ/1236م بالدخول إلى المغرب الاوسط أين أطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن بينما جاهر بالخلاف عبد القوى بن العباس و قومه بني توجين ، فنزل ابو زكريا الحفصي مدينة البطحاء وهزمهم وألقى القبض على عبد القوي الذي تحصن في المدينة ،ولم تستمر سيطرة الحفصيين على هذه المدينة حيت أصبحت تحت نطاق حكم الزيانين في إطار صفقة عقدها السلطان الحفصي أبو زكرياء مع يغمراسن تنازل فيها عن حكم المنطقة الغربية ومنها البطحاء مقابل الطاعة[30].

وقد شهدت المدينة بعد ذلك عدة حروب بين بني توجين ويغمراسن ادت الى تخريبها بالكامل وذلك عندما سير السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق ضد يغمراسن أين وجد أمير بني توجين الفرصة التى طالما كان ينتظرها في أخذ الثأر مما لحقه من ويلات الحروب التى كان يرددها العاهل الزياني على بلاده فشفي غيظه بتحطيم المزارع والقرى

المجاورة لتلمسان" قطعوا الثمار ونسفوا الابار ،وخربوا الربوع ولم يدعوا بتلك الجهات قوت حاشا السدرة والدوم " [31] .

إلا أن عدم تمكن السلطان المريني عبد الحق من اقتحام تلمسان اضطره الى الانسحاب راجعا الى المغرب الاقصى ، مماجعل موقف بني توجين حرجا حيث فر عبد القوي بن توجين من نواحي تلمسان خوفا من انتقام بغمراسن ،وقام في طريقه بتهديم وتخريب البطحاء[32] ويبدو سبب ذلك خوفا منه أن يجعلها يغمراسن معسكرا تنطلق منه حملته على بني توجين وخاصة وأنها تتاخم حدودهم ويعزز هذا الرأي ماذكره ابن خلدون بقوله " ونهض محمد بن عبد القوي للقائه ومر بالبطحاء ، وهي يومئذ ثغر لأعمال يغمراسن فهدمها"[33] ولقد سعى يغمراسن هو الأخر الى تأمين ايضا جهته الغربية حيث منح لأحلافه من سويد رياسة منطقة البطحاء حيث أقطعها ليوسف بن مهدي وأقطع عنتر بن طراد بن عيسى مراري البطحاء نفسها أين كان يتولي جمع الضرائب على سكانها[34].

هذه المدينة التي ستعاد بنائها على يد يوسف بن يعقوب المريني في إطار حملته سنة 698هـ /1298 على تلمسان التى قوض فيها سلطة عثمان بن يغمراسن و اكتسح بلاد المغرب الأوسط حيث توغل في الجهة الشرقية لإخضاع القبائل المعارضة له من بني توجين و في طريقه أعاد بناء مدينة البطحاء ويبدو ذلك في حوالي 702 هـ/ 1308هـ والتي كان هدمها عبد القوى كما أسلفنا ذكره[35] .

إن هذه السياسة التي ترتكز على التخريب وإعادة البناء من جهة ستكرر في العهود اللاحقة و ستؤذي إلى اندثار معالم المدينة حيث تصبح مجرد أطلال حيث ستصبح البطحاء مسرحا للصرع داخل الأسرة الزيانية أين اتخذها أبو زيان وانصاره من العرب الهلالية معسكرا لهم مما جعل ابا حمو يتجه اليه في 11 ذي الحجة سنة 765هـ[36] ،وهنا وقعت بينهما معركة انهزم فيها ابو حمو، مما جعله يسارع للعودة الى تلمسان ،ورغم

قدرة ابي حمو بعد ذلك على القضاء على منافسه ،إلا أن معركة البطحاء شكلت منعرجا خطير ا في مصير الدولة الزيانية حيث أخذت الدولة تتنازل عن امتيازات هامة لفائدة عرب زغبة ،إذ اتضح للقبائل العربية مايمكن لهم أن يستفيدوه من خلال مساهمتهم في الحرب القائمة بين أبو حمو ومنافسيه من قبيلة او أسرته ، بالانحياز الى جانبه أو بتأييد خصومه ،وهذا ما أدركه أبوحمو هو نفسه مما جعله يعمد الى تلبية رغباتهم لتجنب خطرهم واستراحة من فتنهم [37]، وسيتلقى بفعله هذا البيعة والطاعة بعد ذلك في البطحاء من طرف أشياخ بعض الأعراب و وأشياخ بني توجين ويصف يحي ابن خلدون ذلك" بعد ان إطلع أبي حمو على أحوال مدينته وقام بتحصينها.... أذعن له أشياخ بعض الاعراب ....ثم نزل البطحاء وأخذ أشياخ بني توجين كافة و سيق الجميع في ركبه العلي " [38] .

أبوحمو التى أصبحت البطحاء بالنسبة اليه ملجأ يحتمي اليها عندما يجد نفسه في مأزق مثل ذلك الحال سنة 786 هـ/1384 م عندما سير أبو العباس حملة للانتقام من أبي حمو بسبب فعلته في مكناسة وتازا .... وغيرها ،مما حذا بهذا الأخير إلى اللجوء الى البطحاء ولولا عودة السلطان أبي العباس بسبب ما بلغه من إجازة موسى بن أبي عنان من الأندلس وأنه خلفه في دار ملكه لربما أصبحت مسرحا لمعركة أخرى بين السلطة المرينية والزيانية ونفس الأمر يقال في حملة سيرها قبل ذلك السلطان عبد العزيز ،مما جعل أبو حمو يعسكر في البطحاء ليعود ليحتمى بها بعدما انقلب عليه ابنه أبو تاشفين حيث عمد الى إصلاح العرب وكسب ودهم وتأليبهم ضد ابنه ابي تاشفين الذي استبد بحكم تلمسان [39] ،والى جانب هذا فقد اتخذها بعض المعارضين للسلطة معسكرا لهم مثل على حمزة بن على بن راشد المغرواي ، ممما جعل الوزير المريني على بن مسعود يعسكر في مجال البطحاء تمهيدا لمواجهة هذا المعارض .[40]

2-3 خراب المدينة :

إن هذه السياسة التي تجعل المدينة معسكرا للسلطة و أعدائها كما أكده ابن خلدون في كتابه في كثيرا من المرات سيكون وقعها وخيما على البطحاء بحيث ستصبح مجالا مباحا للنهب ومسرحا للحرب و الصراع في كثير من الأحيان ،ومتنفسا للانتقام من الخصوم وتصفية المعارضين ومثل ذلك ماذكرناه من فعل عبد القوي بن توجين من تخريب المدينة و ما سيفعله الاعراب الناقمين على سياسة السلاطين الزيانين والتى اكتسحت البطحاء و أوطانها [41] ، هذا سيؤذي في النهاية إلى زوال معالم المدينة التى شهدت تحضرا كبيرا شهد عليه الوزن نفسه والذي سيشير إلى السبب الجوهري في اندثار المدينة بقوله " خربت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من سكان جبل ونشريس ..... والتى لم يتمكنوا من أخذها فأحرقوها ونتج عن ذلك أنه لايرى اليوم من البطحاء سوى أسس الجدران "[42] .

3- النشاط الاقتصادي والتركيبة الاجتماعية والثقافية .

3-1 النشاط الزارعي :

لقد توفرت بلاد البطحاء على مقومات ازدهار النشاط الفلاحي حيث تشير المصادر الى خصوبة اراضيها و توفرها على" حقول الفيحاء في غاية الخصب " تطل على "سهل فسيح " تنتشر حوله بساتين والتى يغذيها نمر مينه ،هذه المقومات التى اشاد بها الوزان ستجعل المنطقة صالحة لزارعات الحبوب وخاصة منه القمح [43]الذي كان ينبت فيها بكثرة بحيث اصبح يحقق لخزينة الدولة دخلا قار إذ يقدر بعشرين ألف مثقال من المداخيل [44]، وقد وفرت البطحاء وأعمالها مخزونا كبيرا من الحبوب والواضح أن الكميات كانت كبيرة إلى الدرجة التى جعلت صاحب العبر يصف تلك الاقوات المخزنة بأنها "كانت بحرا لايدرك ساحله [45]" .

أما عن طبيعة ملكية أراضي البطحاء فيمكن أن نقول أنها كان إقطاعية للقبائل الموالية للسلطة ،إلا ان هذا لم يمنع من وجود ملكيات فردية وهذا ما يفهم من خلال إطلاق الدولة الزيانية لهذه القبائل لجمع الضرائب على الفلاحين ،اضافة إلى وجود نص صريح أورده الوزان عن تملك أحد النساك لأراضي من البطحاء يتصرف فيهم[46] ، والواضح أن قبائل بني عبد الواد وبني توجين و بني سويد ممن استوطنت منطقة البطحاء لم تكتف بجباية الأراضي التى نالتها بالاقطاعات ، بل إنهم ولكون تلك الاراضي كانت عالية الخصوبة فقد خرجوا من مشاتيهم بالصحراء وخلفوا مشاتيهم "لاعتمار أرضهم وإزدراع فدنهم .... خاصة بني عبد الواد الذين استحوذوا على كامل المنطقة الممتدة ما بين البطحاء إلى ملوية ساحله وريفه وصحرائه[47]" .

وباعتبار الرعي وتربية الحيونات عملا مكملا ومتصلا بالنشاط الزراعي فنجد أن البطحاء فقد اصبحت مجالا رعويا بامتياز حيث أن أحد النساك القاطنين في تلك المدينة كان يملك من الاغنام ما يعدل عشرة ألاف من الغنم.والفين من البقر وخمس مائة من الخيل ذكورا واناثا [48]، وبالعودة إلى التركيبة القبلية التي استوطنت المنطقة نجد أن المصادر أشارت أن هذه القبائل أولت اهتماما خاصا لتربية المواشي ساعدها في ذلك ماذكرنا من توفر من اتساع الحقول وتوفر المياه ،حيث يذكر ابن خلدون عن قبائل مغرواة وتوجين وبني عبد الواد الزناتية ذلك"يضغن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي ... ومكاسبهم الشاه والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج "

وفي سياق متصل نجد ان البطحاء عرفت حتى قبل الفترة الزيانية تربية واسعة لتربية للمواشي وهذا ما يمكن أن يستشف من خلال ما ذكره البيدق عند زيارة ابن تومرت حيث كان تعرض عليه أنواع عديدة من الاغنام يختار منها لذبحها ، تكريما له ولأصحابه حيث وصف تلك الاغنام بالكثرة وبالتنوع .[49]

على أن استمرار النشاط الفلاحي في المدن أو انقطاعه يتوقف على درجة الامن وسياسة الحكام ،إذ ستساهم الحروب والقلاقل التى تجلب معها الفوضي والخرب في انحصار المجال الزارعي في المدينة وستتحول حتى وصول أحد المتصوفة الى مجال غابي كثيف ،ورغم استصلاح سهل البطحاء على يد هذا المتصوف وأتباعه وانتعاشه الجزئي إلا ان المدينة بقيت تعيش نوعا من الخراب ومجالا للنهب ويعزو ذلك حسب الوزان إلى عبث الأعراب التى لم ينجوا من خطرها إلا هذا الناسك نتيجة لما كان يحظى به من تقدير إلى جانب ماأسلفنا ذكره من حرب بني زيان مع أعدائهم .

3-2 التركيبية الاجتماعية :

نتيجة لموقعها الهام فقد أصبحت البطحاء مجالا إقطاعيا يتم تقديمه للقبائل الموالية وهذا ما جعل التركيبة السكانية تتغير حسب العهود ،فقد كانت المنطقة تحت هيمنة قبائل زناتة بني يفران لتتحول التركيبة السكانية لصالح قبائل مغرواة بني يلومي التي أصبحت تتملك المنطقة تم تحولت مجالا لبعض قبائل هبرة العربية حتى وصول الدولة الموحدية التى أقدم خليفتها على إعمار المدينة وأمر ببقاء مجموعات من القبائل في المدينة ولتسلم هذا المجال بعد ذلك لقبائل بني عبد الواد التي بدورها أقطعتها لعرب سويد التي تم سلبها منها بعد القطيعة الزيانية مع بعض شيوخها لتتحول إلى مجالات لحروب متعددة ستؤدي الى خلو السهل من السكان حتى وصول أحد المتصوفة الذي سيعيد تشكيل مجتمع صغير بالاعتماد على نسله و مريده[50] .

3-3البطحاء والظاهرة الصوفية :

لقد شهدت البطحاء نشاطا صوفيا كبيرا بعد خربها على إثر توافد أحد المتصوفة إليها الذي يذكره مارمول كاربخال تحت تسمية سينا ويشير أن المنطقة اصبحت تعرف بمنطقة سينا ، هذا المتصوف الذي سينشأ زواية خاصة به وسيحظي بمكانة واعتراف من طرف السلطة السياسية الحاكمة التى أصبحت تهابه هي و الأعراب نظرا لمكانته وسطوته

بين الناس إذا سيعفى من دفع الإتاوات، والظاهر من إشارات مارمول و حسن الوزان أن الزواية أصبحت مشهورة ومقصدا للمريدين الذين بلغ عددهم حوالي خمسمائة مريد ، كما توافد عليه الناس من كل الجهات ،ولقد استطاعت الزاوية التي شيدها هذا المتصوف أن تصل مداخليها من الصدقات سنويا بمبلغ ما يتروح بين أربع ألاف وخمسة ألاف مثقال نذورا وصدقا[51] .

أما عن طبيعة شخصية هذا الصوفي وطبيعة الطريقة الصوفية فيورد الوزان ان المتصوف قد وجد في البطحاء مكانا مناسبا لنشر طريقته خاصة مع ما كانت توفره من خيرات جعلت منه من كبار الملاك في المنطقة ،ويظهر ايضا أن هذا الصوفي تميز بلباسه الأنيق جدا هو وأولاده وعائلته ،ولم ينزع الى حياة التقشف والزهد ولم ينقطع عن ملذات الحياة ، ويبدو أن هذا الصوفي كان متأثرا بطريقة أبي مدين شعيب ومن بعده الشاذلي اللذين ثارا على أسلوب المجاهدات النفسية القاسية فغيرا من معني الزهد والتقشف السطحي وحصرا معني الزهد والتقشف في تطهير القلب من حب الدنيا ،كما اشار في سياق حديثه عن هذا الصوفي انه كان فقيها ، مطلعا على كتب التنجيم والسحر والكيماء[52] .

هذه الطريقة التى لم يشجع فيها أتباعه على حياة الخمول و التعبد فقط ألزم مريديه في المشاركة في أشغال الزاوية التى أصبحت تعج بالناس ،وقد وضع هذا الصوفي لأتباعه طريقة جعلت الوزان يستغرب من بسطتها حيث تعتمد على الأذكار أسسها ذكر اسماء الله الحسنة ،ويوصيهم بتكرارها في أورادهم عدة مرات في اليوم ولا يفرض عليهم أي فريضة غير صلواتهم العادية، ويبدو أن هذه البساطة جعلتها في متناول العامة وساهمت في انتشارها بين أوساطهم .

ونجهل اليوم مصير هذه الطريقة رغم ماأشار اليه الوزان من ان طريقته انتشرت في المغرب والمشرق ولعل طريقة هذا الصوفي اندمجت مع الطرق الصوفية الأخرى خاصة وأن

هذا الصوفي على حسب الوزان لم يعتمد على تدوين تعاليم طريقته فقد تميزت طريقته بالبساطة[53] .

خاتمة:

من خلال دراستنا لدور مدينة البطحاء فقد توصلنا الى مجموعة من النتائج أهمها :

لقد شكل المجال الجغرافي الاستراتيجي للبطحاء عاملا حاسما جعل منها محط اهتمام الدول لمتلاحقة على المنطقة .

لقد أصبحت البطحاء مجالا يتنازع عليه المعارضين مع السلطة تارة ومجالا للحرب والنزاع تارة أخرى.

إن مدينة البطحاء ومن خلال ما ذكرناه قد لعبت دورا اساسيا في تاريخ المغرب الأوسط و تاريخ المنطقة بما شهدته من أحدات وصنعته.

لقد تحولت البطحاء الى معسكر للقوى المتصارعة مما سيؤدى إلى تخريبها اندثار معالمها .

لقد تميزت البطحاء بتنوع اقتصادي ظهر خاصة في المجال الزراعي حيث وفرت المدينة كميات كبرى من القمح و انتاج حيواني معتبر و دخلا ثابتا للخزينة .

لقد أصبحت المدينة مجالا إقطاعيا للقبائل الموالية مما كان له تأثير واضح على طبيعة التركيبة البشرية فيها .

لقد عرفت البطحاء نشاطا صوفيا واضحا يمكن ربطه مع الظاهرة الصوفية التي طبعت المغرب الاوسط ككل .

إن كتابة تاريخ منطقة غليزان وقلعة بني راشد والمدن المجاورة على غرار البطحاء يحتاج الى دارسة أثرية لربط النص التاريخي بالشواهد الأثرية.

[1] عبد المؤمن بن على (ت. 10 جمادى الآخرة 558 هـ/16 مايو 1162م): ولد في قرية "تاجرا" الجزائرية التي تبعد نحو ثلاثة أميال عن مرسى "هنين" ، تحمل عبد المؤمن علي الكومي أعباء الدعوة عقب وفاة أستاذه و بعد الهزيمة المدوّية التي لحقت بالموحدين، واستطاع في صبر وأناة أن يعيد تنظيم شئون دعوته وأن يسقط دولة المرابطين . محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس – مكتبة الخانجي – القاهرة 1411هـ = 1990م.، ص60 .

[2] البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، وبداية دولة الموحدين، دار المنصور، الرباط،1971، ص19 . ابي زرع الفاسي، الانيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصورللطباعة الرباط،1972،ص 199 .

[3] مهدي بن تومرت،ابن تومرت (471 أو 474هـ - توفي 13 رمضان 524 هـ) سياسي وداعية إسلامي عاش في المغرب الأقصى بين نهاية القرن الحادي عشر الميلادي والقرن الثاني عشر. يعتبر مؤسس الدولة الموحدية.، عبد المجيد النجار ، المهدي بن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والإجتماعية وأثره بالمغرب ،دار الغرب الاسلامي،بيروت ،ط1 ، ص30 .

[4] البيدق، لمصدر السابق ، ص19 .

[5] المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، دار صادر، بيروت ، ص56 .

[6] مارمول كاربخال ، إفريقيا ،ترجمة محمد حجي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة،المغرب ، ص 326

[7] حسن الوزان ، وصف افريقيا ،تحقيق محمد حجي ص27، 28 .

[8] ياقوت الحموي ، معجم البلدان، دار صادر،بيروت،ج1995،01،ط02 ،ص 446.

[9] نهر مينه . من أشهر الأودية في الغرب الجزائري وينبع من الجبل الأخضربضواحي فرندة ويمر عبرولاية غليزان إلا أن يصب في وادي الشلف يذكره البكري ومدينة تيهرت هي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمّى مينة وهو في قبليّها ،البكري ،المسالك والممالك ، در الغرب الاسلامي، بيروت، 1996 ،ج02. ص733.

[10] مارمول كاربخال ، المصدر السابق ، 326 .

[11] ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة ، سهيل زكار ،دار الفكر ، ط1 ، ج6 ، ص 190

[12] المطمر: دائرة المطمر وكانت تسمة كلانشة في العهد الاستعماري يوجد مجموعة من الاطلال بقرب السكة الحديدية تعود الى فترات سابقة .

[13] هذا ماذهب اليه الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود ، تحقيق يحي بوعزيز ،ج1 ، دار الغرب الاسلامي ،ج1 ،هامش ص 122، عبد الرحمن الجيلاني ، تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية ، الجزائر ، 1965، ص91 . ابو عبد الله الاعرج ، تاريخ الجزائر من قيام الفاطمين الى ثورة الامير عبد القادر ،تحقيق مختار حساني ، ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، دت ، ص 282

[14] ابن منظور ، لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط03، 1414 هـ ،ج02 ، 413 .

[15] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1 ، ص 446 .

[16] مبارك الميلي، تاريخ الجزئر في القديم والحديث،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1986،ج2، ص 224 .

[17] مارمول كاربخال ، المصدر السابق ، ص 326 .

[18] عبد الرحمن بن رستم : مؤسس أول دولة اسلامية جزائرية مستقلة وأول من ملك من الرستميين فيها. كان من فقهاء الاباضية في أفريقية، معروفا بالزهد والتواضع كانت مدته بها سبعة أعوام. ثم وليها ابنه عبد الوارث فكانت مدته بها عشرين سنة وتوفي في سنة ١٨٨.ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ،تحقيق ج.س.كولان ، ليفي بروفنسال،دار الثقافة، بيروت ،ط03 ، 1983، ج1، ص197 .عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف ، بيروت ، 1980،ط02، ص148 .

[19] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6،ص156 .

[20] يلل : مدينة يلل بها عيون ومياه كثيرة وفواكه وزروع وبلادها جيدة للفلاحة وزروعها نامية .الادريسي ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، عالم الكتب ، بيروت ، 1409 ، ط1 ، ج01، ص 251 .

[21] ابن الصغير ، أخبار الائمة الرستمين ، ص 84-ص85 اليعقوبي ، البلدان ، دار الكتب العلمية ،بيروت ط1، ص 195 .

[22] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج07، ص74 .

[23] محمد بن خير بن خرز المغرواي قام بمولاة الامويين في عهد المستنصر تولى الزيري بن مناد مقارعته سنة 360 ، وقتل نفسه لما عرف نهاية أمره. شرف غبد الحق ، الادوار السياسية والمذهبية لقبيلة زناتة في المغرب الاوسط بني يفرن ومغرواة ،مجلة للدارسات التاريخية والاثرية ، مجلد 04 ، العدد02، 2021،

[24] الأغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود ، تحقيق يحي بوعزيز ،ج1 ، دار الغرب الاسلامي ،ج1 ،ص 122 .

[25] عبد الرحمن الجيلاني، المرجع السابق ، 329 .

[26] من بطون سويد هؤلاء بطن بنواحي البطحاء يعرفون بهبرة، ينسبهم الناس إلى مجاهد ابن سويد، وهم يزعمون أنهم من قوم المقداد بن الأسود، وهم بهذا من قضاعة، ومنهم من يزعم أنهم من تجيب إحدى بطون كندة والله أعلم . ابن خلدون ،المرجع السابق ، ج 6 ، ص 65 .

[27] القبائل الهلالية

[28] البيدق ، المرجع السابق ، ص 19، أسامة عبد الحميد حسن السامرائي، دولة الموحدين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2014، ص 95 .

[29] أحمد/الدرعي السلاوي، الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى،تحقيق محمد عثمان،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2014،ج1، ص272 . عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 163 .

[30] ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6 ، 405 .

[31] ابـن ابي زرع، الانـيس المطـرب بـروض القرطـاس، ص ص 131-132.بورملـة عربيـة ، إمـارة بـني تـوجين بالونشريسخلال القرن 08/07هـ / 13-14 م ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران ،2010، ص 44 .

[32] ابن خلدون المصدر السابق ، ج6، ص41 .

[33] ابن خلدون نفسه ، ج07 ، ص 209

[34] ابن خلدون ، نفسه ، ج6،ص 61 .

[35] ابن خلدون ، المصدر السابق، ج7،ص 223 .

[36] ابو عبد الله التنسي ، نظم الدرر العقيان في بيان شرف بني زين، تحقيق محمود بوعباد ، المكتبة الوطنية ، الجزائر، 1985، ص 180 .

[37] يحي بن خلدون ،في ذكر ملوك بني عبد الواد ، نشره ألفرد بيل ، مطبعة الاخوين ، الجزائر ، 1910 ، ج 1 ، ص 101 .عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو وحياته و وأثاره ، المطبعة الوطنية ، الجزائر ،ص12 .

[38] يحي بن خلدون، المصدر السابق ، ج 02 ص ص 196 -200 .

[39] ابن خلدون ، المرجع السابق ، ج 04 ، ص 68 . ج7 ، 571 . ج 7 ، 176

[40] يحي بن خلدون ، المر جع السابق ، ج 01 ،ص 245 .

[41] ابن خلدون ، ج7 ، ص 138 .

[42] حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص ص 27-28 .

[43] الوزان، نفسه ، ص 27 ، مارمول كاربخال المصدر السابق ، ص 326 .

[44] الوزان ، المصدر السابق ، ص 27 .

[45] ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج7 ، ص326 .

[46] حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص 28 . مارمول كاربخال ، المصدر السابق ، 326 .

[47] ابن خلدون ، ج 7 ، ص 302 .

[48] حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص 28 .

[49] البيدق، المصدر السابق ، ص 19 .

[50] بن خلدون ، المصدر السابق ، ج6،326 . حسن الوزان، المصدر السابق، ص 27 ، مارمول كاربخال ، المصدر السابق ، ص 326 .

[51] حسن الوزان ، المصدر السابق ، ص 28 . مارمول كاربخال ، المصدر السابق، ص 326 .

[52] حسن الوزان ، نفسه ، ص 28 طهر بونابي ، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 07 ، دار الهدى ، الجزائر ، 2004، ص 254 .

[53] حسن الوزان، المصدر نفسه ، ص 27-28.